مقدمة

يتناول هذه الداسة بالدراسة لفن السيرة الذاتية ، كتابة النص الأدبي ، وما يثيره من أسئلة ، ولما كان هذا الفن ينفر من التجنيس فيستعير من الرواية بعض تقنياتها (التصوير والتجسيد للأحداث، واستبطان الذات) ، ويستعير من الدراما (الحوار والصراع الدرامى) . . ويتفق مع القصة التاريخية فى عرضه لحياة صاحبها الواقعية . . وهذا الفن يأتى فى صور متعددة ، ويهدف صاحبها من وراء كتابة سيرته إثبات الذات وتمجيد تاريخ نضاله فى الحياة ، أو تنفيساً عن ثورة عارمة انتابته ، أو حالة نفسية طارئة أو مبدأ من المبادئ وقضية من القضايا التى تنبع من ظروف وحياة صاحب السيرة الخاصة به . . بناء على ما تقدم جاء تصورى لهذه الدراسة كالأتي :

تمهيد : أقف فيه على تعريف السيرة الذاتية ، وعلاقاتها بالأجناس الأدبية الأخري والمقومات التى يجب توافرها فى كاتبها ، وأصول هذا الفن فى تراثنا العربى ، وتطور (السيرة الذاتية) حتى بداية العصر الحديث ، والسيرة الذاتية فى الأدب الغربى .

المبحث الأول :

أشكال التعبير الفنى للسيرة الذاتية ، أقف فيه على أشكال التعبير الفنى لهذا الفن، الشكل المقالى (الذى يقوم على التحليل والتفسير) الشكل التأريخى الراصد (الذى يرصد لحياة صاحبه فى لغة علمية صارمة) ، الشكل الروائى الذى يعتمد على التقنيات الروائية فى التصوير وتجسيد المواقف ، واستبطان الذات باستخدام المنولوج الداخلى .

المبحث الثانى :

السيرة الذاتية الغاية والمقصد ، أقف فيه على الغاية العامة لكتابة السيرة ، ثم أتناول لتنوع غائية السيرة من كاتب لآخر ، هذه الغاية التى تنبع من طبيعة وظروف صاحبها الخاصة ، واعتراف بعضهم بالهدف من سيرته وعدم اعتراف بعضهم خاصة في السير الذاتية الروائية ، وأتتبع مقصدية بعض الكتاب في هذه السير (طه حسين – ميخائيل نعيمة – فدوي طوقان – خليل حسن خليل – حنا مينا – بنت الشاطئ) .

المبحث الثالث :

المؤلف (السارد) بين الصدق والتعرى ، أقف على الجانب الإيجابى للصدق وأفرق بين الصدق والتعرية فى كثير من السير الذاتية فى العصر الحديث .

المبحث الرابع :

بناء الأحداث فى السيرة الذاتية ، أقف فيه على الواقع والمتخيل ومساحة الخيال فى السيرة الروائية ، والعلاقة بين سرد الكاتب لحياته ، وللوقائع المحيطة به .

المبحث الخامس :

السيرة الذاتية الروائية بين تقديم حياة صاحبها والولاء للفن الروائى ، وفيه أقف على بعض السير الذاتية الروائية التى وازنت بين تقديم حياة أصحابها فى ثوب روائى ولبعضها الأخرى التى تحولت فيها السيرة إلى رواية .

أتبع فى دراستى منهجاً فنياً جمالياً ، يتعامل مع النص قيمة فنية جمالية وألتزم الموضوعية ، رافضاً التحامل أو المجاملة لكاتب أو لآخر ، محاولاً الكشف عن قيم هذا

الفن ، من خلال عدد كبير من السير الذاتية فى أدبنا العربى المعاصر ، وقد توصلت إلى بعض نتائج سجلتها فى نهاية البحث

لا أدعى أننى سأقول الكلمة الأخيرة فى موضوع هذا البحث ، فهذا محال ، ولكن ما أستطيع أن أقوله هو أننى حاولت واجتهدت ، وأية دراسة لها إيجابياتها و سلبياتها ولكن يكفى للسلبيات أنها توجه الآخرين فى دراستهم للبحث للوصول إلى الأفضل .

والله الموفـــق .

د .شعبان عبد الحكيم محمد

obeikandl.com

تعريف السيرة الذاتية :-

التعريف الجامع المانع للسيرة الذاتية ضرب من المحال ، ومرجع ذلك طبيعة هذا النوع الأدبي الذى يعرض فيه المؤلف (صاحب السيرة) لحياته الواقعية ، فى أسلوب أدبى ، وفى صور متعددة ، قد يتخذ الشكل الروائى ، أو الشكل المقالي ، أو الاعترافات أو المذكرات ، أو الذكريات . . . الخ

كل ذلك فى نسق متآلف ، فيعرض لمراحل حياته المتعاقبة وتطوره الفكرى والوجدانى والروحى والعقبات التى واجهته . . . الخ

وللسيرة الذاتية غاية يهدف صاحبها من وراء كتابتها قد تكون توكيداً للذات أو تنفيساً عن انفعالات أو حالة نفسية ألمت به ، أو تبريراً لموقف غير مستساغ صدر منه أو دفاعاً عن قضية فكرية أو اجتماعية آمن بها . . . الخ نضيف لما سبق لاستحالة وضع تعريف جامع مانع للسيرة الذاتية طبيعة الأدب الذى يند عن التحديد الصارم والقول الفاصل ، لذا فلا غرابة ان تختلف التعريفات لدى الدارسين ، وإن اتفقوا فى إقرارهم للسمات العامة لهذا الجنس الأدبى .

ففى دائرة المعارف البريطانية السيرة الذاتية " هى المؤلف (الروائى) الذى يسجل بصورة واعية وبصيغة فنية الحدث ، ويعيد للحياة -الدرامية ، لان موضوعها الحياة، وفرع من الأدب يحتوى على تقرير عن حياة أشخاص ، وهى صيغة أدبية قديمة"(١)

ويعرفها فليب لوجون *Philippe lejeune* بقوله " سرد استعارى نثرى يقوم به شخص واقعى عن وجوده الخاص ، وذلك عندما يركز على حياته الفردية ، وعلى تاريخ

1- Purnells : New English Encyclopeadia " Biohraphy ".

شخصه " [١] ، ويعرفها فايرو بأنها (السيرة الذاتية) " عمل أدبي وبأن هذا العمل قد يكون رواية ، أو قصيدة ، أو مقالة فلسفية ، يعرض فيه المؤلف أفكاره ، ويصور إحساساته بشكل ضمنى أو صريح " [٢] .

ويعرفها محمد عبد الغنى حسن بقوله " التراجم هى ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذى يتناول للتعريف بحياة رجل . . . تعريف يطول أو يقصر ، ويتعمق أو يبدو على السطح تبعاً لحالة العصر الذى كتبت فيه الترجمة ، وتبعاً لثقافة المترجم – أى صاحب الترجمة – ومدى قدرته على رسم صورة كلية واضحة . . . ودقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التى تجمعت لديه " [٣] . وعند الدكتور محمد يوسف نجم " هذا النوع يقوم على وحدة الحياة لا وحدة الحادثة أو وحدة العمل القصصى ، أو وحدة التأثير " [٤] . وعند أنيس المقدسي " هو نوع من الأدب يجمع بين التحرى التاريخى ، والإيقاع القصصى ، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ، ورسم صورة دقيقة لشخصه " [٥] .

ولا يعد العمل الأدبى سيرة بالمعنى الحقيقى إلا إذا كان تفسيراً للحياة الشخصية فى جوهرها التاريخى . فهى ليست مجرد أخبار تاريخية ، ولا هى مجرد تحليلات نفسية أو اجتماعية ، بل هى كل ذلك مسبوكًا فى قالب فنى ذى طلاوة ورواء [٦] .

ولعل أقرب التعريفات لهذا الجنس الأدبى تعريف د ٠ يحيى إبراهيم عبد الدايم فى قوله : " الترجمة الذاتية الفنية هى التى يصوغها صاحبها فى صورة مترابطة على

---

١ - راجع : مقدمة كتاب " السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ " ترجمة عمر حلّى وهو ترجمة لفصلين من كتاب لوجون La pacte autobiographique المركز الثقافى العربى ببيروت عام ١٩٩٤ نقلا عن د . يمنى العيد السيرة الذاتية الروائية والوظيفة المزدوجة (دراسة فى ثلاثية حنا مينا) مجلة فصول العدد ٤ عام ١٩٩٧ ص ١٣ .
٢ - م. نفسه نفس الصفحة نقلاً عن المعجم الكونى للادب ص ١٨٧٦ .
٣ - التراجم والسير : محمد عبد الغنى حسن ط دار المعارف عام ١٩٦٩ ص ٩ .
٤ - فن القصة د ٠ محمد يوسف نجم دار بيروت للطباعة والنشر عام ١٩٥٥ ص ٣٠ ٠
٥ - راجع الفنون الأدبية وأعلامها أنيس المقدسي ط دار الكاتب العربى عام ١٩٦٤ ص ٤٥٧ : ٥٥١ .
٦ - راجع م. نفسه نفس الصفحة ٠

أساس من الوحدة والاتساق فى البناء والروح . . . وفى أسلوب أدبى ، قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافياً كافياً عن تاريخه الشخصى على نحو موجز ، حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة ، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض ، وحسن التقسيم وعذوبة العبارات وحلاوة النص الأدبى " [1] .

كل هذه التعريفات تتلاقى وتتجاور ولا تتعارض ، أو تتناقض ، لتجتمع على أن السيرة الذاتية الأدبية ، عمل أدبى يقوم بتأليفه صاحبه ، يعرض لسيرة حياته فى إطار عصره ، دون أن يلزم نفسه بمنهج المؤرخ الذى يقوم برصد كل أحداث عصره ، وهذا العمل يتوافر فيه روعة التعبير الأدبى ، وجودة الصياغة الفنية ، والتناسق بين أطرافه ، فى رابطة فنية محكمة ، مع اختلاف صور التشكيل الفنى من كاتب لآخر ، وانطلاقا من هذه المقدمات الفنية لفن السيرة الذاتية نستبعد كثيراً من صور التعبير الذاتية كالأحاديث الصحفية رغم قدرتها فى الإشارة إلي سمات صاحبها (الفكرية المزاجية والاجتماعية) ولكن لا تعطينا صورة مستوفاة عن سيرة حياته فى نسق متكامل ، أو الاعترافات الخاصة التى هى غير الاعترافات العامة مثل اعترافات القديس أوجستين ، أو اعترافات روسو التى تعتبر سيرة ذاتية كاملة لأنها تعكس لنا حياة صاحبها فى صورة متكاملة ،أما الاعترافات الخاصة ، مثل اعترافات شفيق جبرى فى كتابيه (أنا والشعر وأنا والنثر) .

فمثل هذه الاعترافات تعتبر قاصرة فى سردها حياة صاحبها ، ومن هذه الأعمال التى لا تعد سيراً ذاتية – أيضاً – النصائح مثل نصائح (إلي ولدى) لأحمد أمين ، ومنها –

١ - الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى ابراهيم عبد الدايم ط دار النهضة العربية للطباعة والنشر ببيروت ص ١٠ .

أيضاً – الرسائل ، واليوميات وأدب الرحلات لأن كل هذه الأشكال الفنية – كما ذكرنا – لا تعرض لصاحبها فى رؤية متكاملة لسيرة حياته [١] .

وقد استخدم الدارسون السيرة بمعنى الترجمة ، وإن كانت كلمة " سيرة فى التراث العربى أقدم فى الاستعمال من كلمة ترجمة ، من حيث مدلولها فى تتبع تاريخ حياة شخص من الأشخاص ، فالأولى استعملها محمد بن اسحق فى تاريخ حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبقى هذا المدلول حتى القرن الرابع الهجرى ، حتى كتب ابن الداية (سيرة بن طولون) فتطور المدلول من الخاص إلي العام . . . والمعاجم العربية القديمة تغفل استعمال كلمة (ترجمة) للدلالة على تاريخ الحياة ، ولكن المعاجم المعاصرة تستخدمها بهذا المعنى ، ولعل الاستعمال وحده هو الذى فرق بين الكلمتين فى المدلول حيث استعملت سيرة التواريخ الحياة المسهبة ، وترجمة للتواريخ الموجزة " [٢] .

والسيرة الذاتية *Autobiography* بهذا المفهوم تختلف عن السيرة الغيرية *Biography* ، فالأولى تعرض لحياة صاحبها فتعكس مشاعره وعواطفه ومواقفه من الحياة فى صورة تستبطن أغوار النفس وخلجاتها ، أما الثانية فتعرض لحياة غيرها من خلال الوقائع والذكريات واليوميات والمقالات والرسائل . . . إلخ ، لذا كانت السيرة الذاتية أوغل فى الصدق ، وأوقع فى النفوس ، لأن مؤلفها صاحبها . فلا يوجد هناك وسيط لعرض أحداث حياته وآرائه ومواقفه فى الحياة ، وكلتا السيرتين لا تنتميان إلي عالم الأدب إلا إذا تحلتا بالأسلوب الأدبى . الذى يعتمد على صدق الأداء ورصانة العبارة ، وروعة الألفاظ وجمال التصوير ، وقوة الصراع الذى يمنح السيرة الحركة والجمال .

---

١ - راجع : السيرة تاريخ وفن د . ماهر حسن فهمى مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٠ ص ٢٥٠: ٢٦٩ .
٢ - م. نفسه ص ٣ .

السيرة الذاتية والفنون :-

وإذا كانت السيرة تعتمد على وقائع حياة صاحبها ، ومجالها الذاكرة ، والرواية تعتمد على التخيل ، (أى أدواتها الخيال) فى نسج أحداثها ، لذا احتاط بعض الدارسين فى تجنيسها . . . لأنها تجمع بين التاريخ والأدب ، فرأت فرجينيا وولف أنها (السيرة) "ليست فناً – ولا علماً – إنما هى نوع من الصنعة الراقية ، وهى خادم للحقيقة والصراحة والنزاهة ، وهى الآلهة الثلاثة التى ترى السيرة وتقف عندها " [١] . ولكن كثيراً من الدارسين يرونها (السيرة) فناً ، وأنها " نوع من الأدب يجمع بين التحرى التاريخى ، والإيقاع القصصى . يراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته " [٢] . وأن من سمات هذا النوع من الفن أنه يقوم على وحدة الحياة لا وحدة الحادثة ، أو وحدة العمل القصصى ، أو وحدة التأثير [٣] .

ورأى ليتون ستراتشي أن فن السيرة هو " أدق وأرق فنون الكتابة طرًا . . . وأن مصدر هذه الدقة كون كاتب السيرة يسعى إلي أن يبعث الحياة فيما تبقى من مادة جامدة تختلف وراء عبور إنسان ما لهذه الحياة الدنيا . . . فيسعى إلي أن يسترد ما كان بمثابة الروح والجسد والمشاعر ويصوغها على صورة ذلك الإنسان الغابر ، ومصدر هذه الدقة أن عملية السيرة هى بطبيعتها عملية تتسم بالإنسانية والتهذيب والمدنية ، ولما كانت هذه العملية تجمع بين الدقة والرقة ، فإنها تشمل على كل ما فى الحياة من غموض ومتناقضات " [٤] ذلك لأن فن السيرة يعتمد على حقائق الحياة ومعطيات الفن لذا ينبغى

---

١ - فن السيرة الأدبية : لبون إيدل ، ترجمة صدقى خطاب مطبعة الحلبى عام ١٩٧٣ ص ١٥ .
٢ - الفنون الأدبية واعلامها : أنيس المقدسي ص ٥٤٧ .
٣ - راجع : فن القصة د . محمد يوسف نجم ص٣٠ .
٤ - راجع : فن السيرة الأدبية ليون ايدل ص ١٨:٢٠ .

على كاتب السيرة " أن يأخذ من المنبعين كليهما (الحقيقة والفن) بقدر متعادل ، فلتكن الحقيقة الصادقة ممزوجة بهذه الفنية الروائية التى تصور لنا الأشخاص بما يختلج فى نفوسهم من خير وشر ، حتى نلمس صورة واضحة للكائن الحى " [١] .

فالسيرة - بهذا التصور - جنس أدبى له تقنياته الفنية الخاصة به ، لأنه يعتمد على الحقائق ، التى تصاغ فى أسلوب أدبى ، يستعمل فيه الخيال بقسط محدود ، وبما لا يتعارض مع عرض هذه الحقائق فى حياة صاحبها ، ومن شأن هذا العمل أن يحدث متعه جمالية ، انطلاقا من هذا التصور ينبغى أن نستبعد من هذا الفن تلك الصورة الفنية التى تأخذ طابعاً مختلفا عن السيرة كالتي يكتبها أصحابها على شكل مذكرات يعنى فيها بتصوير الأحداث التاريخية ، أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذاتى وليست (السيرة الذاتية) - أيضاً - ما يكتب على صورة ذكريات يعنى فيها صاحبها بتصوير البيئة والمجتمع ، والمشاهدات أكثر من عنايته بتصوير ذاته ، وليست هى - أيضاً - المكتوبة على شكل يوميات تجئ فيها الأحداث على نحو متقطع ورتيب ، وليست هى - أيضاً - بالرواية الفنية التى تعتمد فى أحداثها ومواقفها على الحياة الخاصة لكاتبها ، فكل هذه الأشكال فيها ملامح الترجمة الذاتية ، وليست هى لأنها تفتقر إلي كثير من الأسس التى تعتمد عليها السيرة الذاتية (فى صورتها الفنية) [٢] . ولا يعد من السير الذاتية - أيضاً - الروايات التى يتخذ مؤلفوها شخصية من الشخصيات قناعاً لها ، لتكون هذه الشخصية معبرة عن ذاته وأرائه فى الحياة " فقد يحاول الكاتب أن يقص سيرته الذاتية ، ولكن فى نفس الوقت يرفض الاعتراف أمام الجمهور ، لأن العقل يجد الاعتراف مخجلاً ، وهنا يرى

---

١ - طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية د . رشيدة مهران ط الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية عام ١٩٧٩ ص ٢٠ .

٢ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحى ابراهيم عبد الدايم ص٣ .

الكاتب نفسه حائرة ، وفى موقف متناقض ، ولا حل لهذا التناقض ، إلا أن يجد رموزاً تكفل له السلامة ، فيلجأ إلي القصة ويتخيل لها بطلاً يمثله وأسماء مستعارة تمثل الشخصيات التى التقى بها فى الواقع " [١] .

ومن أبرز هذه الشخصيات شخصية أديب لطه حسين ، فقد اختفى الكاتب وراء أديب ، هذا الرجل الشاذ ، ليكتب جزءاً من سيرته ، بعد كتابة الأيام ، والقارئ لرواية أديب يشعر من الوهلة الأولى أنه أمام شخصية امتداد لطه حسين فى الأيام . سواء فى الجو الذى تدور فيه فضائيات النص ، أو فى أسلوب الكاتب الذى يعد امتدادا فى أسلوب الكاتب الذى يعد امتداداً لأسلوبه فى الأيام ، لتنتهى حياة هذا الأديب الشاذ بالجنون دون أن يضع لنا مبرراً لذلك ، وقد علل د . ماهر حسن فهمى مقصدية المؤلف حين قال "تكشف لنا رؤية أديب عن رغبة المؤلف فى الخروج من إطار الذاتية المباشرة ، خاصة بعد أن اعترف به المجتمع أديباً كبيراً وعميداً للأدب العربى " [٢] .

ومن هذه الشخصيات - أيضاً – شخصية كمال عبد الجواد فى ثلاثية نجيب محفوظ ، هذه الشخصية الفنية عكست لنا أزمة صاحبها (نجيب محفوظ) فكرياً ، بل أزمة جيل " كان يحس بخيبة الأمل بعد أن فشلت الثورة فى تحقيق أهدافها الوطنية العامة . . . وما من شك فى أن كمال هو بطل هذا الجيل فى حياة الأسرة " [٣] .

وقد اعترف نجيب محفوظ نفسه بهذه الصلة بين شخصيته وشخصية كمال فقال " أنا كمال عبد الجواد كما فى الثلاثية ، كما يعكس أزمتى الفكرية ، وكانت أزمة جيلى فيما أعتقد " [٤] . فنجيب محفوظ درس الفلسفة فى كلية الآداب وكذلك كمال ، وقد

١ - السيرة تاريخ وفن د . ماهر حسن فهمى ص ٢٨٦ .
٢ - م. نفسه ص ٢٨٩ .
٣ - م. نفسه ص ٢٩١ .
٤ - المنتمى د . غالى شكرى – القاهرة ١٩٦٤ ص ٧.

أحب نجيب محفوظ من حى أرستقراطى بضاحية العباسية بينما كان يسكن فى حى شعبى ، وكانت تكبره بعامين ، وقد فشل فى حبه ، فترك فكرة الزواج حتى تزوج بعد أن جاوز الأربعين ، وكذلك كمال أحب (عايدة) ذات المستوى الاجتماعي الأرقى لمستواه وفشل فى حبه ، فترك فكرة الزواج حتى بعد الأربعين " [١] .

ومن هذه الشخصيات - أيضاً – شخصية محسن فى (عودة الروح) وفى (عصفور من الشرق) هو توفيق الحكيم ، يؤكد ذلك أن (محسن) بطل عصفور من الشرق ، والتى يصور فيها رحلته إلي باريس ، وصديقه أندريه شخصية حقيقية يتراسل معه ويجمع رسائله فى (زهرة العمر) ومحسن فى عودة الروح ابن مستشار ويملك ضيعة فى الريف ووالدته سيدة متعجرفة تحتقر الفلاحين وتود أن تطبع (محسن) بهذا الطبع ، ولكن (محسن) يتعاطف معهم ، وتوفيق الحكيم ولد فى الإسكندرية عام ١٨٩٨ وكان أبوه قاضياً من قرية الدلنجات ، وأمه تركية حادة الطبع كانت تملك مزرعة كبيرة . . . ومحسن فى الرواية يرسله أبوه ليقيم فى القاهرة ، مع عمه وعمته ، ويلتحق بإحدى المدارس الثانوية ، فسكن معهم فى شارع سلامة فى حى السيدة زينب ، ومحسن فى الرواية فتى خيإلي محب للموسيقى أحبها طفلاً منذ التقى بالأسطى شخلع ، وعزف على الهارمونيكا التى كان يملكها عمه ، وعلمته سنية البيانو [٢] ، وتوفيق الحكيم فى الواقع رجل خيإلي محب للموسيقى ، ومحسن فى الرواية يحب سنية ، وفى الوقت نفسه يقع فى حب سنية عمه عبده وعمه سليم ، وقد اعترف توفيق الحكيم بهذا الحب ولكن رغم ذلك كله ينبغى ألا يؤخذ " العمل الفنى وثيقة من الوثائق التى تستعمل فى كتابة السيرة ، وإذا أخذ شئ من

١ - م. نفسه ص٤٢ .
٢ - راجع عودة الروح توفيق الحكيم القاهرة مكتبة الآداب د ٠ ت ص ١٤٣:١٤٤ .

ذلك فلابد أن يؤخذ بحذر بالغ " [١] . فلم يقصد توفيق الحكيم أن يكتب سيرة ذاتية ، بقد ما أراد من روايته (عودة الروح) الإشادة بتاريخ شعبه ، ومقدرته فى تجاوز محنه لأنه يحمل فى أعماقه عناصر المجد والخلود .

ومن هذه الشخصيات – أيضا –ً ، شخصية همام فى قصة (سارة) للعقاد ، فقد اعترف العقاد نفسه بأنه همام وبأن سارة شخصية حقيقية مازالت على قيد الحياة [٢] وكما اعترف لصديقه الأستاذ طاهر الطناحى أنه كان أثناء حبه لهذه الفتاة يحب الآنسة مى ، فقيدة الأدب العربى ، وقد اعترف لنا فى حديث معه بحب هاتين الفتاتين وحدهما فقال : لقد أحببت فى حياتى مرتين سارة ومى ، كانت الأولى مثال الأنوثة الدافقة ناعمة ورقيقة لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها . . . ، والثانية كانت مثقفة قوية الحجة [٣] .

ونلمح فى شخصية همام أنها تتصف بكثير من صفات العقاد فى النزعة العقلية الشديدة ، وفى التحليل النفسى ، فهمام فى الرواية يقوم بتحليل نفسى ، لهذه الشخصية (سارة) ، وهذا منهج العقاد فى كتاباته (وخاصة السير فحلل شخصية الصديق وعمر وجعل الأخير صورة للجندى . . . الخ) وجاء تحليله لسارة رمزاً للأنوثة الدافقة فى قوله "حزمة من أعصاب تسمى امرأة وهيهات أن تسمى شيئاً غير امرأة استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة ولعلها أنثى أونصف أنثى ، لأنها أكثر من امرأة واحدة فى فضائل الجنس . " [٤].

---

١ - فن السيرة : د . إحسان عباس ط دار الثقافة بيروت عام ١٩٥٥ ص٨٧ .
٢ - راجع ادباء فى صور صحفية محمد نصر القاهرة ١٩٦٥ ص ١٦٨ .
٣ - راجع أنا لعباس محمود العقاد – المقدمة للأستاذ طاهر الطناحى ص٢٠ كتاب الهلال يوليو ١٩٦٤ العدد ١٦٠ .
٤ - سارة – عباس محمود العقاد القاهرة دار المعارف رقم ١٠٨ ط٢ عام ١٩٦٤ ص٩٧ .

والمازنى فى إبراهيم الكاتب يخلع كثيراً من صفاته ومن أحداث حياته على بطله (إبراهيم) فإبراهيم قصير ضامر الجسم واهي التركيب ، ماتت زوجته ، وكذلك المازنى وإبراهيم يأخذ الأمور من مأخذها السهلة القريبة ، وإذا قرأ أو كتب يغيب عن الدنيا وما فيها ، يكره الضجيج ، وينفر من الأصوات العالية ، وهو يتطير من كل شئ ، ويفر من الألوان القاتمة ، وكذلك المازنى ، وقد حاول المازنى فى مقدمة روايته أن يتنصل من علاقته ببطله ، ولكن الرواية عكست خلاف ذلك . (١)

ولكن رغم ذلك كله لا يمكن اعتبار مثل هذه الروايات سير ذاتية لعوامل عدة أبرزها أن أصحابها لم يصرحوا بوضوح أنهم يكتبون سير حياتهم ، والأمر الثانى أن شخصيات رواياتهم لا تصور حياة المؤلفين فى نظام متناسق يعكس لنا رحلة حياتهم ونوازعهم وأهواءهم ، ولكنهم يصورون بعض صفات صاحب الرواية وفى هذا يقول د٠ إحسان عباس " وليس من ريب فى أن سارة أو عودة الروح أو عصفور من الشرق أو إبراهيم الكاتب تتضمن نواة من حياة أصحابها ، وبعض الأحداث التى وقعت لهم ، ومعالم من شخصياتهم وذواتهم ، لأن هؤلاء الكتاب ذاتيون فى هذه الكتب . . . فمحسن فى عودة الروح يمثل كثيراً من توفيق الحكيم ، ولكنه ليس توفيق الحكيم . . وإذا كنت تقطع جازماً بأن محسن هو الحكيم فى القصة فما صلة الحكيم بشخصية مصطفى ؟ إنه يتحدث عن مشاعره وحركاته كما لو كان يتحدث عن نفسه . " (٢)

وقد أجاب أحمد إبراهيم الفقيه علي من سأله عن تطابق شخصيته وشخصية خليل الإمام بطل ثلاثيته (لا أحد فى المدينة) بقوله " كل قصة كتبتها فيها شيء من

١ - راجع : السيرة تاريخ وفن د . ماهر فهمى حسن ص ٣٠٠ .
٢ - فن السيرة د . إحسان عباس ص٨٨ .

نفسى ، دون أن تكون فصلاً من حياتى " [١] رغم التطابق الكبير بين الشخصيتين فكلاهما سافر إلي انجلترا ، وحصل على درجة الدكتوراه فى الأدب من جامعة أدنبرة وكلاهما عاش فى بيئة صحراوية قاسية حالت دون تحقق قدر كبير من الحرية التى يتمناها المرء

والترجمة الذاتية وإن اشتركت مع الترجمة الغيرية فى تصميمها الفنى حيث وحدة البناء ، وتطور الشخصية وقوة الصراع ، إضافة إلي اعتمادها على الاحداث التاريخية (لحياة صاحبها) والسرد الأدبى . . إلا أن الترجمة الذاتية أكثر صلة ، وأبعد أثراً فى نفس المتلقى عن السيرة الغيرية ، ذلك لأن السيرة الذاتية كاتبها صاحبها يمتاح من ذاكرته ويكتب عما اعتمل فى نفسه ، أما كاتب السيرة الغيرية فهو يعتمد على المذكرات والوثائق واليوميات والقراءات الأخرى عن شخصيته ، فكاتب السيرة الذاتية يصور مادة متنوعة من ذاته ، وكاتب السيرة الغيرية يستنتج من تحليله للوقائع والأحداث التى وقف عليها عن الشخصية التى يكتب عنها ، و " الكاتب الذاتى هو صاحب الكلمة الأخيرة فى موضوعه فلا يستطيع أحد أن يضيف لمادته شيئاً جديداً ، وأما الكاتب الغيرى ، فهو كاتب بين الكثيرين ، ومن الممكن أن يضيف إلي موضوعاته – دائماً – شيئاً جديداً ، ومن الممكن أن يتناول موضوعه كتاب آخرون ربما يملك بعضهم أكثر مما يملك من معلومات ووثائق ، ومن الممكن أن يخرج بعضهم السيرة بشكل آخر ومن منطلق جديد " [٢] .

فكاتب السيرة الغيرية مشاهد لا حكم ، أما كاتب السيرة الذاتية فهو مشاهد وحكم فى الوقت نفسه ، وتشترك السيرتان فى أن كلاً منهما تمدنا بسيرة حياة الرجل العبقرى

١- راجع : الاغتراب والحلم فى أدب أحمد إبراهيم الفقيه د . شعبان عبد الحكيم محمد ط دار التيسير بالمنيا عام ٢٠٠١ ص٣٢ نقلاً عن مجلة العربى العدد ٤٨٣ فبراير ١٩٩٩ ص٧ .

٢ - طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية د . رشيدة مهران ص ٣٢ .

لأنهما يتناولان التاريخ الحقيقى للأفذاذ من بنى الإنسان ، وكلتاهما تطلعنا على التطور الخلقى والعقلى والعاطفى لصاحبها [١]

أما الفرق بين السيرة الذاتية والرواية والمسرحية فإن كاتب السيرة الذاتية يعتمد على الذاكرة واستبطان الذات والبوح النفسى مصوراً انفعالاته ومشاعره الدفينة إزاء هذه المواقف التى تصور سيرة حياته ، أما كاتب الرواية أو المسرحية فهو يعتمد على التخيل فالأول يلتزم الحقيقة والثانى يترك المجال للتصور والخلق ، لذا صار كاتب السيرة الذاتية " يعانى من صعوبات الفنان المبدع الخلاق على نحو أشد صعوبة ، وفى صورة أكثر تعقيداً منها ، فإنه يلزم جانب الحقيقة التزاما صارماً ، وإنه يعانى حين يكتب ترجمته الذاتية فى صورة روائية صعوبة أشد مما يعانى الروائى أو المسرحى " [٢] . وكاتب السيرة الذاتية ملزم بالمواءمة بين الالتزام بالحقيقة وبالتقنيات الفنية للسرد الأدبى ليجعل من عمله عملاً أدبياً أكثر وقعاً وتأثيراً فى النفوس .

وهناك فرق آخر بين كاتب السيرة الذاتية والكاتب الروائى ، فالأول يلزم الترتيب الزمنى فى سرد تاريخ حياته مصوراً مراحل حياته المتعاقبة (بناءً هرمياً) أما الكاتب الروائى فليس ملزماً بهذا البناء فى عمله الأدبى ، فقد يستخدم هذا البناء (الهرمى) أو يبدأ الأحداث من نهايتها (الفلاش باك) أو يتبع طريقة البناء المتزامن للأحداث فقد يبدأ أحداث روايته بالماضى فالحاضر فالمستقبل ، ثم يعود إلي الماضى ، ثم يسبق الأحداث إلي المستقبل ، ثم يقف على اللحظة الآنية .. وهذا يعمل على تداخلات الأزمنة وتقاطعها وفى استخدام البناء المتزامن للأحداث يبدو الكاتب وكأنه ينسج فى التو/ الآن ، وتستشف من رواية الأحداث أن الراوى لا يعرف ما سيحدث ، وأنه يتلقى الحدث بعين ، ويبثه

١ - راجع الترجمة الذاتية د . يحيى إبراهيم عبد الدايم ٢٣٧ .
٢ - م. نفسه ص٢٧ .

للقارئ بالعين الأخرى [١] ، ويختلفان – أيضاً – كما ذكرت فى أن كاتب السيرة الذاتية ملزم بسرد حقائق حياة صاحبها ، على خلاف الرواية كفعل تخيلي من البداية ، وإن اشتركا (كاتب السيرة الذاتية والروائى) فى إحداث اللذة الجمالية لدى المتلقى ، من خلال حسن صياغة عملهما الأدبى ، ورصدهما لدخائل النفوس وأشجانها ، مما يثير المشاركة والتعاطف من المتلقى ، لأنه يرى نفسه فى فكر ومشاعر الآخرين ، وقد فطن إلي ذلك هوجو فى قوله : عندما أحدثك عن نفسى ، أحدثك عن نفسك ، وغير رشيد من ظن أننى لست أنت [٢] .

وإذا كانت السيرة الذاتية تشترك مع الرواية فى إحداث المتعة الجمالية ، فهى تشترك مع المسرحية فى تحريك الحس المأساوي والأثر التراجيدي والرغبة فى التطهير وتختلف السيرة الذاتية عن الرواية والمسرحية فى عدم اعتماد صاحبها على الشخصيات الخيالية أو الأسطورية مثل الروائى أو المسرحى ، ولا يصور شخصية أخرى ككاتب السيرة الغيرية ، إنما هو يصور نفسه بنفسه ، ومن ثم كانت السيرة الذاتية أكثر احتفالا بالنقل الأمين لحياة الشخصية .

وعلى الرغم من أن كاتب القصة التاريخية يكتب عن شخصية واقعية ، إلا أنه أكثر حرية فى استخدام الخيال ، وابتداع شخصيات وأحداث أخرى ، ويخلط كل ذلك بشئ من التاريخ ، فهذا الذى يفرق بين القصة التاريخية والسيرة الذاتية ، فجوهر القصة التاريخية متخيل والأحداث الهامة فيها حقيقة ، وليس هدفها أن ترسم حياة شخص ما كما تفعل السيرة بل هدفها أن تستعيد صورة الماضى لإثارة بعض المتعة التى لا يحققها

١- راجع : القصة القصيرة – النظرية والتقنية إنريكى اندرسون إمبرت ترجمة على إبراهيم مراجعة د . صلاح فضل ط المجلس الأعلى للثقافة القاهرة عام ١٩٩٩ ص ١٤٢ : ١٤٣ .
٢ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى إبراهيم عبد الدايم ص٢٨ .

التاريخ فى نفوس أناس ربما لم تسمح لهم ظروفهم وميولهم أوهما معاً بالدراسة التاريخية الجادة ، أما السيرة (الذاتية) – فكما ذكرنا – فهى تزاوج متعادل بين حقائق التاريخ والقوة المتخيلة البارعة فى الحذف والإثبات والبناء [١] .

أما عن كاتب السيرة فهو شخص ذو حساسية خاصة وذوق مرهف ، وإحساس باللحظة التاريخية التى يعيشها ، لأنه لم يكتب هذا العمل من فراغ ، بل من معاناة وإطالة فكر ، وفترة معايشة لموضوعه فترة طويلة حتى أخرجه إلي الوجود ، بعد معاناة وقلق و " كل سيرة فإنما هى تجربة ذاتية لفرد من الأفراد ، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت فى نفس صاحبها نوعاً من القلق الفنى ، فإنه لابد أن يكتبها ، والناس مهما يطل عليهم الأبد وتختلف أحوالهم هم أحد رجلين : رجل وصل إلي حيث يؤمل وانتصر على الحياة وصعابها ، . . ورجل كافح حتى جرحته الأشواك وأدركه الإخفاق ، وكلا العاملين (أعنى الوصول والخيبة) يبلغان بالتجربة حد النضج " [٢] .

فكل سيرة جاءت نتاجاً لدافع نفسى لصاحبها كإحساسه بالمعاناة النفسية التى تحيط به نتيجة ظروف وتجارب خاصة . . لذا يكتب ليفيد ويستفيد ، يفيد القارئ بتجاربه ويستفيد بالتنفيس عن نفسه ، ومشاركة غيره فيما عاناه من أشجان وآلام حتى قهر الظروف العاتية التى وقفت حائلاً فى طريقه ، وليطهر نفسه مما ترسب فى أعماقه من أدران وتصدعات نفسية قاسية ، إن عملية الكتابة (عن النفس) ليست عملية يسيرة كما يتصورها بعضهم ، فصاحب السيرة – وقبل كل شيء – لابد أن يكون شخصية ذات أثر فى الحياة ، وليست شخصية خاملة الذكر ، أو شخصية لم تترك بصمة فى أى مجال من

١ - راجع : السيرة تاريخ وفن د . ماهر حسن فهمى ص ٩٢ : ٩٣
٢ - فن السيرة : د . إحسان عباس ص ١٠٢ .

مجالات الحياة ، ولذا لم تلق (سيرة حياتى) لتوفيق فضل الله ضعون الذيوع والإقبال من القراء لهذا السبب [١] .

وبعد ذلك لابد أن يكون ممتلكاً لموهبة فنية تمكنه من صنع عمل فنى ، يزاوج فيه بين حقائق حياته ، وتقنيات السرد ، بإمتاع القارئ ، بالصدق فى التعبير ، حتى يكون لعمله الأثر فى النفوس ، إن عملية الكتابة عملية غريبة للأحداث ، ووعى بطرق سردها فى صورة متناسقة ، تقوم على جمع الحقائق ، ثم تأتى المرحلة الثانية ، تشكيل هذه الحقائق وفى هذا يقول د . إحسان عباس " لابد لكاتب السيرة الذاتية من يقظة ذهنية مستمرة مشفوعة بإرهاف خاص من التميز والحدس والترجيح ، ذلك لأن مهمة كاتب السيرة كمهمة أى فنان بعد أن تصبح المادة جاهزة لديه . مهمته أن يقرب ويبعد ويستبقى ويرفض ، وأن يضع ميزان الاختبار أمامه فى كل شىء يستحق التسجيل ، وليس يكفيه أن يكون ماله للمؤرخ من قوة نافذة . . بل لابد له من إدراك ذوقى دقيق يعرف به ما يحسن أن يبقيه أو ينفيه " [٢] . فكاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصى فى طريقة العرض والبناء ، إلا أنه لا يخلق الشخصيات من خياله ولا يعتمد الشخصية الأسطورية ككاتب المسرحية . . وهو كالمؤرخ فى قوة النقد ، وكالعالم فى القدرة على التصنيف والتقسيم " [٣] إن هذه العملية التى يقوم بها كاتب السيرة أكثر مشقة على صاحبها من عمل الروائى الذى يبدع رواية فنية ، لأنه يتطلب فى عمله مراعاة كل المقومات الفنية لعمله ، لذا فلا غرابة أن ترى فرجينيا وولف *Virginia Woolf* "أن كاتب السيرة يستطيع

---

١ - راجع : م. السابق ص ١٠٥ .
٢ - م. نفسه ص٨٤ .
٣ - م. نفسه ص٨٥ .

obeikandl.com

أن يعمل على إثارة الخيال أكثر من أى شاعر أو روائى ، وذلك بإخبارنا بالحقائق الصحيحة وبغربلة الصغير من الكبير . .

إن كل كاتب سيرة تقريباً يستطيع إذا احترم الحقيقة أن يعطينا الحقيقة الخلاقة الخصبة التى توحى وتثمر " [١] .

ومن الأمور التى يجب أن يراعيها كاتب السيرة الذاتية – إضافة إلي الصدق – عدم الاعتداد بالنفس وتمجيد شخصه لأن هذا يفقد سيرته الحياد والموضوعية ، وتجعلها هماً ثقيلاً على القارئ ، فلا يتجاوب معها ، ولا يندمج مع صاحبها مشاركاً ، فى بوحه النفس ، وفى أناته ومعاناته ، وأفراحه وأتراحه ، وبذلك تفقد السيرة المتعة الجمالية التى هى غاية العمل الأدبى ويجب " أن تتحرر السيرة تماماً من الوعظ أو تعمد تهذيب الأخلاق وما هو دخيل على غرض سرد قصة أو رسم شخصية ، فإنه يفسد فن كتابة السيرة " [٢] ويجب عليه – أيضا – " أن يترك الحقائق وحدها تتكلم عن نفسها ، وعلى أن يكون نقده مذكوراً ضمن هذه الحقائق ، وليس مؤكداً لها " [٣] .

السيرة الذاتية فى الأدب العربى :-

مر بنا أن العرب استخدموا كلمة " سيرة " وكلمة " ترجمة " بمعنى واحد وإن كانت سيرة هى الأسبق فى الاستخدام ، وقد عرف العرب فن السيرة ، وأول ما عرفوه عن السيرة النبوية ، فقد تناولت سيرته (صلى الله عليه وسلم) التأريخ لأفعاله وأقواله ومغازيه وقد ظلت السيرة عصوراً يقتصر استعمالها على بيان حال الرسول (صلى الله عليه وسلم)

---

١ - فن السيرة الأدبية ليون أيدل ترجمة صدقى خطاب ص٧٥ .

2 -See :The readers Guide sir Willam Enrys Willams p.88 published by penguin Books1960

3 -See :OP. Cit.p 89

ثم تطور الاستعمال فى عصور تالية ، فاستعملت بمعنى حياة الشخص بصفة عامة بدليل ما يذكره صاحب كشف الظنون من ظهور سير كثيرة منذ القرن الرابع الهجرى ، كسيرة احمد بن طولون لابن الداية (ت ٣٣٤ هـ) وسيرة صلاح الدين لابن شداد (ت ٦٢٢ هـ) أما كلمة ترجمة فقد دخلت العربية عن اللغة الآرمية ، ولم تستخدم فى القرن السابع الهجرى ، وعلى مر العصور نرى كلمة ترجمة يجرى الاصطلاح على استعمالها لتدل على تاريخ الحياة الموجز للفرد ، وكلمة سيرة يصطلح على استعمالها لتدل على التاريخ المسهب للحياة . (١)

ولم يستخدم المترجمون العرب هذا المصطلح بدلالته المعاصرة (كفن أدبى) له سماته الفنية الخاصة ولكن رغم ذلك فقد جاء فى تراثنا كثير من السير الذاتية ، يتوافر فيها كثير من السمات الفنية للسير الذاتية فى عصرنا ، ويمكن تصنيف حوافز هذه السير الذاتية كالاتى :-

١- **التبريرية** : وهى التى يدافع فيها أصحابها ، أو يعتذرون فيها عن أفعال قاموا بها، لم يفهمها العامة من الشعب ، كما فعل ابن خلدون فى التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً .

٢- **الرغبة فى اتخاذ موقف ذاتى من الحياة** : وأصدق الأمثلة لهذا النوع من السير التى صورت مذهباً خاصاً أو سلوكاً بعينه لصاحبه ، مثل النصائح الدينية للحارث المحاسبى ، والمنقذ من الضلال للغزالي ، وسيرة ابن الهيثم التى احتفظ بها ابن أبى اصبعة فى كتاب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) .

---

١ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٣١ .

٣- **التخفف من ثورة أو انفعال** : وأوضح مثل لذلك ماورد عن سيرة أبى حيان التى سجلها فى الامتاع والمؤانسة – وفى رسالة الصداقة والصديق فقد أفصح عن ثورة نفسية علي بيئته ومجتمعه .

٤- **تصوير الحياة المثالية** : وهى السير التى كتبت عن حياة صاحبها ، كى يحتذيها الناس لما تمثله من خبرات روحية وخلقية وفكرية مثلما فعل عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه (لفتة الكبد فى نصيحة الولد) وعبد الوهاب الشعرانى فى (لطائف المنن) .

٥- **تصوير الحياة الفكرية** ، وهذا النوع الذى يعمد فيه الكاتب إلي تسجيل كل ما أثر فى تكوينه العقلى وتطوره الفكرى (من كتب وأساتذة) كما فعل البيرونى وابن الهيثم والرازى والسخاوى ، وابن طولون (فى الفلك المشحون فى أحوال ابن طولون) .

٦- **الرغبة فى استرجاع الذكريات** : ومن أمثلتها فى الأدب الغربى (مذكرات ميرابو ومذكرات كازانوفا) وفى الأدب العربى القديم كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ الذى قدم فيه تصويراً حياً لشخصية الفارس الجسور ، وكتاب (طوق الحمامة فى الألفة والألاف) لابن حزم ، الذى يعرض فيه لذكريات شبابه [١] .

وإن كان كثير من هذه السير تفتقد وحدة البناء والإحساس بالتطور الزمني ، ولا تتبع مراحل النمو والتغيير فى الشخصية المترجم لها ، وبالاختصار ظلت السير دون شكل تام ، ودون محتوى وافٍ كامل حتى العصر الحديث . . ومرجع ذلك افتقاد كثير من هذه السير عنصر الصراع ، الذى يعطى العمل الأدبى الحركة والنماء ، لأنها مفتقرة إلي العمق

١ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٣٣:٣٥ ، وراجع فن السيرة د . إحسان عباس ص ١٢٣:١٤٠ .

النفسى [١] ولكن رغم ذلك كله ، فقد اتصفت كثير من السير بجودة الصياغة الأدبية وسلاسة السرد القصصى ، والقدرة على إعادة الماضى ، وبعث الحياة والحركة والحرارة فى تصوير الأحداث والتجارب الشخصية ، وإن كان أقرب هذه التجارب إلي السير الذاتية الأدبية ، بمعناها الحديث التراجم التى كتبها الرازى وأسامة بن منقذ وابن خلدون والشعرانى . فقد توافر فى ترجمتهم السمات المميزة لشخصية صاحبها ، والتطور الذى طرأ على هذه الشخصية ، والصراع الذى اعتراها، مع مهارة فى السرد الأدبى ، الذى يعتمد على كثير من عناصر الفن ، وقدر من الترابط فى أجزاء كل ترجمة ذاتية ، مما يجعلها عملاً يقوم على وحدة البناء فى أكثر أجزائه . كل ذلك يعمل على تحقيق المتعة الأدبية وإثارة التعاطف الوجدانى بين كاتب الترجمة والمتلقى [٢] . وفى العصر الحديث أخذت السيرة الذاتية طريقها فى التطور والنمو ، وبديهى أن تكون المحاولات الأولى محدودة القيمة الأدبية ، وليست بهذه الصورة من الجودة التى وصلت اليها السيرة مع تقدم الأيام فى القرن العشرين ، وأشهر هذه السير تلخيص الإبريز فى تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوى والخطط التوفيقية وعلم الدين لعلى مبارك . والساق على الساق لأحمد فارس الشدياق والذى يجمع بين هذه السير " أن أصحابها لم يتأثروا فى كتابتها بالأدب الغربى ، رغم معرفة بعضهم بهذا الأدب ، وربما يكون تأثيره ضئيلاً لدى البعض الآخر لكنهم جميعاً تأثروا بالتقاليد الموروثة للأدب العربى ، فنرى معظمهم ينهج فى ترجمته الذاتية نهج تراجم العلماء التى يزخر بها تراثنا العربى ، فيعنى المترجم بنفسه كالسابقين – بإثبات مراحل تطوره العلمى والفكرى منذ الطفولة ، حتى وقت كتابة ترجمته ، وقد يعن له ذكر

١ - راجع : فن السيرة د . إحسان عباس ص ٣٧ وص١٢٠ و ص ١٢٣ .
٢ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٣٨ : ٣٩ .

أسرته وأصولها وما وقع له من الأحداث البارزة فى حياته ، ولكنها لا تختلف فى جملتها عن التراجم الذاتية التى خلفها لنا علماء العرب منذ القديم " (١) .

أما سيرة رفاعة رافع الطهطاوى فى (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) فهي تصور خلاصة تجربته فى الرحلة إلي فرنسا إماماً للبعثة التى أرسلها محمد على إلي هناك لتلقى العلم من منابعه الأصلية ، فبهر هناك بتطور الحياة وسجل هذه الملحوظات والتى أراد من خلالها تنبيه المجتمع إلي هذا التطور فى شتى مناحى الحياة ، وقد أستهلها بتعريف نسبه وبلدته وأسرته التى جار الزمان عليها ، بعد سعة من العيش ، وعمله واعظاً فى الجيش ، وسفره مبعوثاً إلي باريس ، وإن كان يؤخذ على هذه السيرة أنه كان متعثراً فى أسلوبه ، متذبذباً بين أسلوب التقرير والشروح والتعاليق الأزهرية ، وبين محاولة ابتداع أسلوب خاص به ، خاصة حين كان يترجم بعض المصطلحات التى لم تعرفها اللغة العربية من قبل " (٢) .

إضافة إلي أنه لم يترك نفسه على سجيتها فى إثبات ملاحظاته وخواطره وتسجيل أثر هذه الحياة فى نفسه ، مما أفقد السيرة الحيوية ، وقد علت القيمة الفكرية على القيمة الأدبية ، لأن مقصدية صاحبها الدعوة إلي الأخذ بأسباب الحضارة الغربية وتنبيه الشرق للجهل الذى يعيش في غياهبه ، كل ذلك فى صيغة تقريرية ، لا من خلال الأحداث التى تستنبط مقصديته استنباطاً .

وأطلعنا على مبارك – أيضا على – تطور الحياة فى المجتمع الغربى فى كتابه (علم الدين) حيث طوف بنا على غرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر وأفرغ ما ينبغى

١ - الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى ابراهيم عبد الدايم ص ٤٧ : ٤٨
٢ - م. نفسه ص ٦٦ .

قوله فى قالب سياحة شيخ عالم مصرى وسم " بعلم الدين " مع رجل إنجليزى كلاهما نظمهما سمط الحديث (تأتى المقارنة بين الأحوال الشرقية والأوروبية) (١) .

فقد قام على مبارك بالتطواف فى بلاد الغرب ، منتحلاً اسم الشيخ علم الدين الذى يتصف بتفتح الذهن وسعة الأفق ، فيوافق على السفر إلي أوروبا مع ذلك السائح الانجليزي فيعلمه العربية ، ويظل يسأل ذلك السائح ، فيفاجئ بعادات أوروبية ، لم يكن على علم بها ، فتارة يقتنع ، وتارة أخرى يرفضها مؤثراً عليها عادات الشرق ، وفى الخطط التوفيقية يعرض لسيرة حياته متكاملة (حيث كتبها عام ١٨٨٩ قبل وفاته بأربع سنوات) تناول فيها نشأته وتربيته ، ومراحل تعليمه قبل سفره إلي فرنسا ، حتى صار وزيراً (لديوان التعليم) ، وإنجازاته فى هذا المنصب (إنشاء مدرسة دار العلوم وإنشاء دار الكتب المصرية) فهذه السيرة غنية بمعارف كثيرة ، وهى معارف تطلع من خلالها على وجوه حياتنا التعليمية فى القرن الماضى . . . بحيث تعد هذه الترجمة وثيقة خطيرة للتعليم فى عهد إسماعيل (٢) .

أما الشدياق فى (الساق على الساق) فقد كان أوضح من الطهطاوى وعلى مبارك ، لأنه قصر الحديث على نفسه ورحلاته إلي مالطة وانجلترا وفرنسا ، مفصحاً عن أرائه فى الحياة ، وسخريته من رجال الدين ، ونقده لبعض العادات عند الغربيين والشرقيين على السواء ، " ولكن غرامه باللغة وانقياده لطبيعة المقامة ، وإسرافه فى التورية والتلميحات الجنسية " . . . إضافة إلي غرامه بالاستطراد والمترادفات اللغوية لإظهار

١ - راجع : علم الدين (على مبارك) القاهرة عام ١٨٨٣ جـ ١ ص٨ .
٢ - الترجمة الشخصية د . شوقى ضيف ط دار المعارف القاهرة ص ١٠١ .

قدراته اللغوية [١] كل ذلك حال دون توافر المتعة الجمالية للسيرة ، لتكلفه وولوعه بالمحسنات البديعية دون إدارك بمقدمات هذا الفن التى ذكرناها من قبل .

ومنذ بداية القرن العشرين ازدهر هذا الفن وتعددت صوره الأدبية كاليوميات والمذكرات والذكريات والاعترافات ، والرواية التى يتخفى صاحبها فى شخصية البطل (كما مر بنا فى أديب لطه حسين وعودة الروح للحكيم وإبراهيم الكاتب للمازنى وثلاثية لا أحد فى المدينة لأحمد إبراهيم الفقيه) .

ونذكر من اليوميات (يوميات مصطفى عبد الرازق ويوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم) ومن المذكرات مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق ، ومذكرات محمد فريد أبو حديد ، ومذكراتى لعبد الرحمن الرافعي ، وخليها على الله ليحيى حقى، ومذكرات الشابى ، وتعددت اتجاهات الكتاب فى الشكل الفنى فاتخذوا الشكل الروائى تارة وأسلوب المقالة تارة أخرى ، وأسلوب المؤرخ تارة ثالثة ، فأصبح فن السيرة اليوم لا يقتصر على معالجة أفعال شخص ، وتأثيره فى زمنه ، وتأثره بزمنه ، ولكنه أصبح يبرز الشخصية كقيمة . . فكان من الضرورى أن يأخذ هذا الفن من علم النفس وعلم الوراثة أشياء كثيرة ويضعها فى قالب أدبى ، ليأخذ – كما مر بنا – من الرواية والمسرحية أسسا كثيراً لتحليل الشخصية ، ووحدة البناء والاعتماد على الحوار وعمق الصراع النفسى . . . ومن أشهر هذه الأعمال التى توافر فيها المقومات الفنية لهذا الفن الأدبى ، الأيام لطه حسين . وزهرة العمر وسجن العمر لتوفيق الحكيم ، وأنا وحياة قلم للعقاد ، وتربية سلامة موسى لسلامة موسى وأوراق العمر للويس عوض ، وحصاد العمر لتوفيق يوسف عواد ، وعلى الجسر لبنت الشاطىء ، والخبز الحافى والشطار لمحمد شكرى ، والبئر الأولى وشارع الأميرات لجبرا

١ - راجع : فن السيرة د . إحسان عباس ص ١٤١ .

إبراهيم جبرا ، وبقايا صور والمستنقع والقطاف لحنا مينا ، ورحلة صعبة (رحلة جبلية) والرحلة الأصعب لفدوى طوقان ، والوسية لخليل حسن خليل . . الخ .

السيرة الذاتية فى الأدب الغربى :-

يبدو أن السيرة الذاتية بالمفهوم الحديث لم يكن لها وجود فى الأدب الغربى قبل عام ١٦٠٠ م ، ثم ظهرت بعد ذلك ، وفى فترات طويلة حتى عام ١٨٠٠ م ، وإن كان هؤلاء الكتاب يتوخون ما يشبه لبعض السنن الأدبية فى كتاباتهم ، ولكن رغم ذلك لم يستطيعوا صنع جنس أدبى جديد [١] .

وأقدم ما كتب فى فن السيرة كان على يد شخصين يونانيين هما ثيوفراستوس (٣٧٢ – ٢٨٨ ق . م) وبلوتارك (١٢٢ – ٤٨ ق . م) غير أنهما أهتما بالأنماط العامة أكثر من اهتمامهما بالصفة الشخصية ، وكانا مهتمين بما هو شائع من الشخصيات ، ولم يهتما بما يميز كل فرد بعينه ، وقد ظهرت السيرة فى الأدب الانجليزي بداية من عام ١٥٧٩م ، وكان أول هذه السير موقوفا على حياة القديسين ، وكانت هذه السير تتناول الأتقياء فى صورة من الوقار ، وكان غرض هذه السبر إظهار معجزاتهم ، والأعمال الجميلة فى حياة هؤلاء [٢] .ومن هذه السير ما كتبه *ألفرك Alifric* من سيرة (أزوالد) والقديس (أدمون) وكانت هذه الكتابات هى بداية الكتابة الجادة فى فن السير والتراجم فى الأدب الانجليزي ، وقد ظلت إلي القرن التاسع عشر حتى أصبحت فرعاً من فروع الأدب . [٣]

1 -English autobiography , Its Emergence materiale and form . California ,university California press 1954 p.5 .
2 -See The Readers guide William Enrys Williams p.82
3 - See : Purnell : New English Encyclopedia vol 2 No .7

ومن أشهر التراجم الذاتية فى الأدب الغربى اعترافات القديس أوغسطين التى تعتبر قمة الاعترافات الدينية ، وقد حذا حذوها من كتب بعده ، وهى تذكر بما احتوته من صراحة وصدق ، وقدر من الاستبطان والتعرى النفسى والأصالة . (١)

وقد اتخذت السير الذاتية فى العصور الوسطى عند الغرب صوراً عدة كالمذكرات واليوميات والذكريات والاعترافات . نذكر منها مذكرات جميس ميلفل (١٦١٧) ومذكرات (روبرت كارى ١٦٢٦) ومذكرات السير جيمس تارنر (١٦٧٠) ، ومن اليوميات يوميات بلستروود (١٦٧٥) ويوميات جون إيفلين (١٧٠٦) ويوميات صمؤيل بيتس (١٧٠٦) ومن الذكريات ذكريات كارلين (١٨٨١) وذكريات وليم ميشيل رونهاتى ومن المذكرات مذكرات بيتر هنرى بروس ،ومذكرات الفيكونت وولزلى (١٨٠٣) ومذكرات جلوفر التى نشرها عام (١٨١٤) ، ومن المذكرات – أيضاً – مذكرات جيمس فيرجسون ومذكرات هيوم ، ومذكرات هوج ومذكرات سير ولد سكون ومذكرات داروين (٢)

ومن الاعترافات نذكر اعترافات جون نيوتن ، واعترافات كوبر ، وهناك ترجمتان ذاتيتان كان لهما أكبر أهمية فى تطور هذا الفن الأولى كتبها الفليسوف ديفيد هوم *D Hume* عام ١٨٨٧ م والثانية كتبها جيبون *Gibbon* عام ١٧٩٦ م ، وترجع قيمة الأولى أنها كانت البداية للسير الأدبية التى تدفقت كتابتها تدفقاً غزيراً بعد ذلك . أما الثانية فقد كان ظهورها إيذاناً بوثبة جديدة فى تاريخ الترجمة الذاتية ، يتحلى بالتقاليد والأساليب التى توخاها الكتاب الذين جعلوا من هذا الفن فناً قائماً بذاته . (٣)

وقد انتشرت السير الذاتية فى القرن العشرين لانتشار المبادىء الرومانسية وعنايته بالفرد وأحاسيسه ، واتصفت هذه السير بالجرأة والصراحة والتعرى أكثر من غيرها

١- راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى إبراهيم عبد الدايم ص١٣ .

2 - See : English autobiography p.63:64

٣- راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى إبراهيم عبد الدايم ص١٨:١٩ .

obeikandl.com

فنجد بعض الكتاب يكشفون عن علاقات شخصية بدون تحرج مثل جان جاك روسو الذى يعترف بالسرقة وبعلاقات مع نساء متزوجات . . الخ .

ومن أشهر السير الذاتية فى الأدب الإنجليزى فى القرن العشرين ترجمة وليم بتلر ييتس *yeats* (ت ١٩٣٨) وجورج مور الذى كتب ثلاث ترجمات (اعترافات شاب- مذكرات حياتى المنسية – سلاماً ووداعاً) وقد اتخذ الأسلوب المباشر فى عرضه لسيرته كالمذكرات والذكريات – ومن السير التى لها مكانة - فى الأدب الغربى – سيرة حياة هيلين كيلر بعنوان (قصة حياتى) فقد ولدت خرساء صماء عمياء وفيها توصلت لعالم الحواس الذى كانت قد فقدته . (١)

ومن أشهر السير فى الأدب الفرنسى اعترافات روسو وكتاب صديقى لأناتول فرانس ، ويوميات أندريه جيد ، ويوميات جابريل مارسيل ، ومن أشهر السير فى الأدب الألماني رسائل جوته والشعر والحقيقة لجوته ، وثلاث تراجم لكارل ياسبرز هى (حول فلسفتى عام ١٩٤١ م) وفى طريق الفلسفة عام ١٩٥١ وسيرة ذاتية فلسفية عام ١٩٥٣ م وسيرة مجملة لاينشتاين ، ومن أشهر السير فى الأدب الروسى اعترافات تولوستوى ويوميات مارى بشكيرتسيف ، والحلم والواقع لنيقولاس برديائيف . (٢)

وقد علل دافيد سيسل لانتشار فن السيرة الذاتية فى عصرنا بقوله لقد شهد الأربعون عاماً الأخيرة تقدماً كبيراً فى الدراسة النفسية وطبيعة الشخصية الإنسانية والقوى التى تحركها ، وتأثير عناصر الوراثة والمؤثرات الخارجية ، كل هذا أصبح مفهوماً لم يكن من قبل ، وعلى ذلك فالكتاب أصبحوا قادرين عن ذى قبل على إعطاء تقرير كامل عن الشخصية الإنسانية . (٣)

---

1 -See : Purnell . New English Encyclopaedia vol 2 No .7Git bir .

٢- راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى ابراهيم عبد الدايم ص١٩ : ٢١ .

3 See : Anthologs of Modern Biography Edited by David Cecil p.27 .